

## بسم الله الرحمن الرحيم

### توطئة

شعرت أثناء عملي في المجلدات المتقدمة أن الفرنسيين ساهموا فيما يعرف باسم الحملتين الأولى والثانية المساهمة الأوربية الأساسية، لكن منذ مقدمات حطين شهدت الساحات الأوربية تبدلات سياسية هامة، كان أبرزها بالنسبة لموضوعنا تعاضم دور انكلترا، واتساع رقعة مملكتها، فقد بات ملوك انكلترا سادة فعليين على جميع أجزاء بريطانيا بما في ذلك إيرلندا، وامتلكوا أجزاء واسعة من القارة الأوربية، أو بالتحديد من فرنسا، جعلت حدودهم مجاورة لحدود اسبانيا، التي تحالفوا معها عن طريق الزواج الدبلوماسي وتبادل المصالح.

لذلك كان علي البحث عن مزيد من المصادر لتغطية هذا، ولزيادة المعلومات عما يعرف باسم الحملة الثالثة، حيث أنه باخفاقها، انتهى عصر صلاح الدين، وتمزق المشرق الاسلامي من جديد، وبالوقت نفسه عانت أوروبا من الصراعات، لاسيما بين فرنسا وانكلترا، وهكذا عجزت أوروبا عن توجيه حملة عملاقة جديدة نحو المشرق، وكنا قد رأينا من قبل أخبار ومصير الحملة الرابعة، وسنرى ان شاء الله في مجلدات مقبلة أخبار ومصير الحملات الخامسة والسادسة والسابعة، التي كانت صغيرة نسبياً.

وقمت منذ عام ١٩٩٦ بعدة رحلات علمية أوصلتني الى أهم المكتبات من مكتبة الكونغرس والمكتبة البريطانية، ومكتبات القاهرة والى

غيرها كثير، وهكذا وفقت والحمد لله فحصلت على ماكنت بحاجة إليه وعلى أشياء جديدة، كان منها المجلد الذي أكتب له هذه التوطئة، فهو قد نشر للمرة الأولى في لندن عام ١٩٩٥، وهو يحتوي زبدة تواريخ أسرة بلانتغت التي انحدر منها: فولك ملك القدس، ووالد بلدوين الثالث وعموري الأول، ومنها جاء هنري الثاني ملك انكلترا ومن بعده ابنه رتشارد قلب الأسد.

وفي هذا المجلد من المواد ما لانجده في غيره من المصادر، فمن خلاله نحصل على صورة مفصلة عن أوضاع كل من انكلترا وفرنسا قبل نشوب أحداث الحملة الثالثة وبعد ذلك، ونتعرف على العلاقات بين الأسر الحاكمة والاقطاعية، وفوق هذا نشهد الفوارق بين المستوى الحضاري لعرب المشرق وبين مستويات أوروبا، ونميز بين عقليات رجال الدين والكنيسة وإيمانهم بالغيبيات، وعقليات رجال السلطة، وكيف تضاربت دوما المصالح بين الكنيسة والدولة، وكيف توفر الاجماع حين تعلق الأمر بالصلبيات، لابل كانت الصليبيات هي المخرج للأزمات الحادة.

وفي هذا المجلد مجموعة من الوثائق غير متوفرة في مصدر آخر، هذا وإذا ما جمعت مواد هذا المصدر مع مواد ذيل تاريخ وليم الصوري، ومع المجلدين المقبلين، يمتلك حينها المؤرخ العربي والقاريء المهتم من المواد ما ليس أغنى ولا أهم، فهنا نشهد عظمة صلاح الدين ورجال عصره من خلال ماقاله الأعداء، ذلك أن مآذره الأصدقاء لا يكفي، فابن شداد حين أرخ حياة صلاح الدين كان شيخاً لم تسعفه ذاكرته بذكر التفاصيل، فضلاً عن أن منهجه ومقاصده وقتها لم تكن مع التفاصيل، وأغرق العماد الكاتب كل ما يحتاجه المؤرخ بالصنعة، ثم إن المؤرخ العربي لم يهتم بكل ما يهتم به المؤرخ المعاصر.

بوساطة المصادر الغربية تكتمل الصورة، وتصبح أكثر وضوحاً ونقاء، صورة عصر جاء تنويجاً لما تقدمه من عصور، وصورة بطل وحدودي

مجاهد لانظيره، يحاول بعض المرضى في أيامنا النيل منها، ونتلقن منها درساً خطيراً، أن إسرائيل قادرة الآن على العيش في الوسط العربي لأنها الكتلة السياسية الوحيدة الموحدة داخل طوق عسكري وأمني مرعب، وأن المشرق العربي إذا لم يوحد هو مهدد بالزوال، عن طريق الدمار أو الاحتواء أو الشرق أوسطية، أو العولمة، أو غير ذلك.

في الماضي رأى صلاح الدين هذه الصورة، فنجح في تحقيق الوحدة، فحقق النصر في حطين وحرر القدس، وصمد في ملحمة عكا، وطبعاً كان أساس الوحدة لديه وحدة الشام ومصر، ولابد اليوم من العمل في سبيل إعادة الوحدة بين هذين البلدين لينضم بقية العرب إليها، فالأمن، والبقاء والكرامة والتراث موجود في الوحدة، والوحدة هي عمل في سبيل العروبة والاسلام، وفي سبيل الانسانية، وفي سبيل النجاة من الاستعباد ومن الأنوقراطية الأمريكية، وكلنا أمل أن يتحول التنسيق والتعاون بين دمشق والقاهرة الى مشروع وحدوي، والله المستعان، ومنه جل وعلا يأتي التوفيق، والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى آله وصحبه ومن تمسك بهداه الى يوم الدين.

دمشق: ٩ شوال ١٤١٨ / ٦ شباط ١٩٩٨

سهيل زكار

## مدخل

يعود فضل ارساء قواعد أسرة بلانتغنت إلى سلسلة غامضة من شحن القلاع في وادي اللوار، الذين ارتقوا في القرن العاشر ليصبحوا كونتات أنجو، ولقد كانوا ذوي مزاج ناري، وأقوياء في القتال، يسرعون للانتقام مما لحقهم من أخطاء، غير أنهم كانوا كرماء نحو الكنيسة، وبهذه الصفات كان هؤلاء الرجال ذوي تأثير رافع في شغل أدوارهم في النشاطات السياسية المعقدة، وبالتدريج تمكنوا من بناء قاعدة سلطوية قوية من خلال مزيج من النشاط الحربي، والدبلوماسية، والزيجاب السياسية الجيدة والتحالفات، ففي سنة ١١٢٨ غدا الكونت فولك الخامس، الذي كان محترماً وناجحاً، ملكاً للقدس، وكان حكم أنجو قد تركه لابنه غيوفري الأشقر (١١٢٨-١١٥١)، وتمكن غيوفري من الاستيلاء على نورماندي، وادعى الحق بعرش انكلترا من خلال زوجته الامبراطورة ماتيلدا، وكانت هذه نقطة حاسمة في أهميتها بالنسبة لسعد الأسرة في أوروبا الغربية، وكان موثماً أن يحمل أبناء غيوفري لقبه «بلانتغنت» كاسم لأسرتهم، وصدر هذا الاسم من ارتدائه قبعة زينت بقشة مكنسة (غنت Genet) وسار ابنه هنري الثاني على خطا الأنجيفيين التقليدية بالتحرك السياسي، فتزوج زواجا رائعاً، وكان مهاجماً كبيراً وفعالاً، ولذلك أقام مملكة واسعة، وحافظ على ممتلكاته التي امتدت من الحدود الاسكوتلندية إلى جبال البرانس، وحوث هذه المملكة أكثر من نصف فرنسا، وخلفه بعد موته اثنان من أولاده: أولهما رتشارد الأول (١١٨٩-١١٩٩)، وكان قائداً عسكرياً جذاباً وفعالاً وصليبياً، وثانيهما جون (١١٩٩-١٢١٦) الذي فقد معظم ممتلكاته الفرنسية، بما في ذلك مسقط رأس أجداد الأسرة في أنجو، فقدتها لصالح فيليب الثاني ملك

فرنسا، وكاد أن يخسر تاجه لصالح لويس بن فيليب، وكان سلوك جون سيئاً نحو باروناته، وكان قاسياً ومتقلباً تجاههم، فنجم عن هذا صدور مرسوم بالاصلاحيات (ماغناكارتا) له ذكر دائم، ولم يتعلق الأمر بالحد من سوء تصرف الملوك وارغامهم على الاصلاح فحسب، بل أرسى القاعدة لحقوقنا العامة وحریاتنا.

وإلى القرن الثالث عشر، كانت المقدرة على القراءة والكتابة تقريباً حصراً بالناس العاملين في الأديرة والكنائس، من الكهنة العاديين، إلى العلماء ورؤساء الأساقفة الكبار ورعاة الدير، واحتاج الملوك والنبلاء إلى كتاب يديرون لهم حكوماتهم ويتدبرون شؤون محاكمهم القانونية، ويجمعون لهم الضرائب، ويحافظون على سجلات أموالهم، ويتولون صياغة وكتابة مراسيمهم التي حوت أوامرهم المتوجب تنفيذها، وصحيح أن الناس تحدثوا فيما بينهم وكتبوا الشعر والأغاني بلغاتهم المحلية، لقد كانت لغة الكنيسة والحكومة خلال العصور الوسطى في أوروبا هي اللاتينية، وشكلت هذه اللغة جسراً فيما بين رجال الدين مهما كانت أصولهم والبلدان التي جاءوا منها، لكنها بالوقت نفسه عزلتهم عن بقية المجتمع، حتى أثناء شغلهم لواجباتهم الأساسية في الوساطة لدى الرب من أجل السلامة الروحية لبني البشر.

وجاءت غالبية المؤرخين في العصور الوسطى من الدير أو من الكاتدرائيات الكنسية، وهي أماكن كانت في يوم من الأيام البيوت الراسخة للصلوات، وكانت بالعادة مؤسسات حسنة التنظيم، وعظيمة الفخار بتقاليدها الخاصة، وبالطبع مسؤولة عن سلامة ممتلكاتها والحفاظ على استقلالها، ولم ينشد المؤرخون إنتاج كتابات تاريخية عقلانية التحليل والصياغة مثلما يفعل مؤرخو هذه الأيام، بل استهدفوا أن يظهروا ماقضاه الرب فجاء على شكل أحداث، مبتدئين بأخبار الخليفة صعوداً مع الأحداث حتى أيامهم، وكان من الممكن للمؤرخ تنفيذ ذلك بالتأريخ

لبلده، وكذلك بالحديث عن انتصارات وآلام ديره، أو عن حياة قديس أو حاكم من الحكام.

وصحيح أن المؤرخين خضعوا لتصاريف أحداث أيامهم، غير أنهم كتبوا لأسباب متنوعة، فبعضهم كتب لتمجيد ملك من الملوك، أو دير من الدير، أو قديس من القديسين، وكتب آخرون للتوجيه الذرائعي، أو للشرح أو للتسلية، لكنهم جميعاً أظهروا بوضوح الدروس الدينية والأخلاقية بشكل ما، وتطلعوا جميعاً نحو المستقبل، وتعايشوا مع الآمال الكبيرة في أن الأجيال المقبلة، ستعتمد على توارихهم وتنقل عنها بكل حرية، ولقد حدث هذا بالفعل في كثير من الحالات، فعلى سبيل المثال كان كتاب «تاريخ الانكليز» لهنري أوف هنتنغدون ناجحاً جداً، وقد جرى نسخه مراراً كثيرة في القرن الثاني عشر، وتنقل بين أماكن كثيرة ووصل حتى ديرلى بك Bec النورماندي، ورتاسة كاتدرائية درم، وظل المصدر الأساسي لعصره حتى القرن السابع عشر، ووصلتنا بعض كتبه الأخرى من خلال نسخة واحدة أو نسختين قديمتين، ومن بينها «حياة القديس هيوج»، ونادراً ما نسخ هذا الكتاب في انكلترا الوسيطة، غير أنه بات واسع الانتشار في القارة منذ القرن الخامس عشر فصاعداً.

وسلف أن طبع كتاب هنتنغدون في التاريخ، وكذلك كتابه عن حياة القديس هيوج، وكان ذلك في القرن التاسع عشر في انكلترا وبالانكليزية، ولم يطبع الكتاب الأول ثانية منذ القرن التاسع عشر، غير أن النصوص الأخرى في هذا الكتاب قد ترجمت للمرة الأولى، وبسبب المساحة، لم تتم طباعة نصوص الكتب كاملة، بل جرى اختيار نقول تولت وصف الوقائع الرئيسية في كل سنة من السنوات المتتابعة، وإيضاح مقاصد الكتاب واهتماماتهم الخاصة، وجرى بالنسبة لبعض النقول الطويلة، والنصوص (وأحياناً الجمل والمقاطع) حذف متعمد بغية تجنب التكرار، أو لإيضاح أسلوب الأصل.

واستفدنا فائدة كاملة من بعض اتهامات مؤرخينا بالصدق والصحة، فكتاب ديسيتو «صورة التاريخ» قد كتب بشكل واضح ومحكم في داخل اطار موثق ومرتب، وهناك على كل حال بعض المصادر الأخرى -مثل تواريخ كونتات أنجو- زاخرة بأساطير لافائدة منها، وهي تتحدث عن حكايات درامية، وأعمال فروسية، أكثر من اعطائنا رواية تاريخية واضحة للأحداث، وحدث بالحقيقة في بعض المناسبات أن قام الكتاب باختراع حوادث لم تقع قط، وهي تتعارض مع روايات أخرى أكثر اعتماداً وموثوقية، حتى الروايات التي هي بادية أكثر صحة من حيث المنطلق، قد لا تتفق دوماً مع بعضها بعضاً، وتظل أقل قبولاً بالنسبة للتفسير الحديث للوقائع، أو في إعطاء تعريف وتحديد للأماكن والأسماء هو نفسه، لذا زدنا عملنا بحواشي كثيرة تساعد على ضبط وايضاح النص المحقق (وطبعت بعض الشروح بأحرف سوداء مائلة قليلاً وبوساطة عبارات وردت بين حاصرتين مربعتين في ثنايا النص)، وفيها عدا تزويدنا للنص أحياناً بتواريخ وكنى وألقاب لتمييز بعض المشاركين الرئيسيين، تركنا المؤرخين يتولون بأنفسهم حكاية رواياتهم.

## المؤرخون

انطلق في أوائل القرن الثالث عشر كل من جيرفاس Gervase الذي كان راهباً ثم غدا المحافظ على الآثار المقدسة في رئاسة كهنة كاتدرائية كانتربري، ورالف راعي دير كوغشال Coggeshall لكتابة تاريخ للشعب الانكليزي والملوكه، وتولى كل واحد منها شرح هذا التاريخ بقدر ما هو مرتبط بتاريخ كنيسته، وزودانا بالصدفة بكثير من الحكايات المسلية والمواد المفيدة حول السياسات الانكليزية المتعلقة

بالسنوات: ١٢٠١ حتى ١٢١٠، حيث هي قليلة جداً في مصادر الأخبار الأخرى، وهناك حوليات بارنول Barnwell التي كتبها راهب أو كاهن مجهول، وهي هامة جداً وفيها شواهد ثمينة عن السنوات الأخيرة لحكم جون (١٢١٠-١٢١٦)، وتظهر بالمقارنة القليل من الميول الإقليمية (جرى حفظ النص في دير بارنول لكنه ربما لم يكتب هناك)، وتقدم هذه الحوليات مقاربة متوازنة لمسألة الصراع فيما بين الملك جون وباروناته، وقد عبّر عن شيء من التعاطف مع الثوار وكذلك مع جون، الذي هو شخصية مؤذية جداً لدى المؤرخين المتأخرين.

وأنتجت بعض الديرة تواريخ رسمية لحمايتها من الملوك أو النبلاء، فعلى سبيل المثال قام الراهب جون فيما بين ١١٦٤ و١١٧٣، في دير مارموتير Marmoutier في وادي اللوار بكتابة نص جديد من كتاب «أعمال كونتات أنجو»، وكان أصل هذا الكتاب المثير والدرامي قد صنّف وجمع في الدير في بلاط الكونتات أثناء القرن المنصرم من قبل عدد من المؤرخين، بما في ذلك الراعي أودو، وتوماس أوف لوشي Louches الذي كان شماساً للكونت فولك الخامس، وكثير من محتوياته، لاسيما المواد المتعلقة بالأنجيفيين الأوائل، لاتتعدى الأسطورة سوى قليلاً، وهي على كلّ حال كتبت وأهديت إلى هنري الثاني نفسه، وقد كان أعظم ملوك أسرته، فضلاً عن كونه أيضاً ملكاً لانكلترا ودوقاً لنورماندي وأكوتين، وبعدهما كمل جاء الراهب جون فسار بالحكاية وذيل عليها وصفاً ملوناً وعظيم الإطراء جاء بمثابة ترجمة لغيوفري الجميل، والد هنري الثاني.

وتتعارض حكايات الراهب جون أوف مارموتير المتدفقة بالحياة والتي هي بالغالب غير شرعية مع مقاربات عدد كبير من مؤرخي الانكليز للقرن الثاني عشر التي هي أكثر توازناً، فقد قدم هنري رئيس شمامسة هنتنغدون Huntingdon في كتابه «تاريخ الانكليز» رواية شبه

معاصرة عن حكم ستيفن، وكانت هذه الرواية في يوم من الأيام مقروءة ومليئة بالدروس الأخلاقية، وتحتوي على مواد واقعية، لئن كانت قد اختيرت بعناية فهي قد عرضت بشكل دقيق، وحظي هذا الكتاب في البداية على موافقة روجر أسقف سالسبري، الذي كان شخصية دينية قيادية وعاملاً في الإدارة الملكية، ثم أعاد المؤلف كتابته وغير توزيع مواده بحكم ازدياد شعبيته، وأعظم تدقيقاً من هذا الكتاب في صياغته كتاب «صورة التاريخ» لـ رالف أوف ديسيتو، وهو كاهن وموثق وفيما بعد عميد كاتدرائية القديس بولص في لندن، وقد ظل يكتب حتى سنة ١٢٠١، وهي كما يظن سنة وفاته، وكان ديسيتو مثله مثل معاصره روجر هاودن Howden (الذي من المؤكد أنه كتب تاريخاً، ولربما كتب أيضاً كتاب «أعمال الملك هنري الثاني والملك رتشارد الأول») قد انطلق لـ اخراج كتاب في التاريخ صحيح، وبما أنه ركز بشكل خاص على الكنيسة الانكليزية نهل بشكل كبير من الوثائق الملكية ورسائل أيامه التي حكّت الرواية التي أراد الانتفاع منها، وقد حلل الأحداث، مستخدماً اشارات هامشية لإظهار مواضيع مختلفة مثل الصراعات بين الكنيسة والدولة، والشجار بين هنري الثاني وأولاده، وهي وقائع شهدتها وهي تقع. ولا بد لكل كاتب ينشد تقديم رواية ايجابية عن أيامه من أن يواجه مشاكل مثل: اعجاب ديسيتو بهنري الثاني، واطرائه لاستشهاد توماس بكت، وهو حادث كان الملك مسؤولاً عنه بشكل غير مباشر، غير أن هذا العائق قد أنتج نتائج ثمينة، لأن روايته عن الشجار بين الملك ورئيس الأساقفة تحتوي على شعور رائع عن الفصل بينهما.

وقدم وليم فترزستيفن، الذي كان كاهناً عمل من قبل في حاشية بكت، في كتابه «حياة القديس توماس بكت»، الذي صنّفه في سبعينات القرن الثاني عشر، بعد أمد وجيز من وقوع حادث الاستشهاد، رواية حية ودرامية عن حياة رئيس الأساقفة وعن موته، وهي رواية مليئة

بالملاحظات الاجتماعية، كما وتحتوي على وصف هام لمدينة لندن، مسقط رأس بكت، وكان القصد الخاص من هذه الرواية هو تمجيد صاحب موضوعها ورفع شأنه، ومثل هذا فعل آدم أوف آينشام Eynsham في كتابه «حياة القديس هيوغ أوف لنكولن»، الذي كان واحداً من أعظم شخصيات الكنيسة الانكليزية في القرن الثاني عشر، وكان هيوغ مثله مثل بكت، قد اختلف مع هنري الثاني ومع أولاده حول الامتيازات اللاهوتية، غير أنه كان قادراً على استرداد الرضى الملكي بوساطة روح الدعابة الجريئة لديه، وهي سمة افتقدها — كما يبدو — بكت.

وكان كل واحد من المؤلفين حريص على عدم توجيه النقد للملك كثيراً، وذلك على النقيض من جيرالد أوف ويلز في سنواته الأخيرة، وكان جيرالد رئيس شامسة بريكون Brecon خصب الإنتاج وكتاباً شعبياً حول موضوعات مثل عادات وسمات الويلزيين والاييرلنديين، لكنه كان متأماً لاختفاقه الطويل في أن يصبح أسقف القديس داود، وديج هجاء قاسياً وعدوانياً ضد القدر الذي قهر الحاكم المذنب، مع اشارة خاصة إلى هنري الثاني.

وبالاضافة للشروح والحواشي هناك تفاصيل كاملة حول المخطوطات التي اعتمدت مع أسماء المؤلفين في نهاية الكتاب.